

جولة مستطلع

في الموسيقى والمسرح

ليس من حق الموسيقى العربية لهذا العهد أن تقوم مصدراً من مصادر الثقافة : أما الغناء الدوار على السنة أهل الصناعة فمردول لما فيه من الميوعة والإسفاف وقصر الجرى ، زيادة على مسخ طائفة من الأغاني الإفرنجية ؛ وأما العزف فقد جمد وجف بفضل جماعة قصروا همهم على التقليد ، وفي ظنهم أنهم حضنة الموسيقى .

لذلك لا بد لمن سُم الطقطوقة والموال والمارش وسائر الترهات أن ينصرف إلى سماع الموسيقى الغربية . وإنى أذكر أن فرقة إفرنجية جلبتها وزارة المعارف قبل نشوب الحرب لم تصنع شيئاً في سبيل الثقافة ، فنشرت في ذلك مقالا في مجلة « الرسالة » نهت فيه المسؤولين على إخفاق سعيهم ميئنا لهم أن نوع الأوبرة الذي أدته تلك الفرقة رذيل ضعيف . فليس بارعاً كل ما يتصل بالموسيقى الغربية ، وهؤلاء الفرنج يميزون ويحكمون ومقاييسهم آيات ملحنهم .

ثم هذه فرقة إيطالية تهبط علينا السنة لتؤدي ذاك النوع بعينه . فكأن من وكل إليه الملمة أفرادها قال في نفسه : « ليس في مصر من يحسن السماع » قال هذا وربما أعجزته موازين الموسيقى الرفيعة ، فجاء بفرقة لا تتجاوز أطرافها ، فيها نفر من المغنين المحيدين وكثير من المغنين الضعفاء . وقد أدت الفرقة طائفة من الأوبرات البالية والابتذلة . وهذه الطائفة كنا بها مصابين في مصر قبل قيام الحرب ، وأسأمتها لاكتها الألسنة : *Rigoletto, Lucia di Lamermoor, La Traviata, La Bohème, Aida, Tosca, Madame Butterfly* فكلها ما عدا *Il Barbiere di Siviglia* ، التي تفاوت أدائها هذه السنة ، تلحق

منذ زمن بعيد في أوبرة بنوع الأوبرة الشعبية ؛ لأن الألحان فيها لا تعدو في غالب الأمر النغم القريب المنال . وتلك هي طريقة Verdi الإيطالي الذي ظل يعمد إلى اللحن الوجداني الصرف تساوقه الآلات في استرخاء ، ولم يخرج عن هذا إلا في قطعه الأخيرة *Falstaff* إذ تأثر بطريقة Wagner ولكن هذه القطعة لم تعرض علينا هذه السنة (!) . وذلك اللون من اللحن الوجداني عقبه ما يقال له الموسيقى الفيرية *Le verisme* ، وخصائص هذه الموسيقى المأساة المفرطة والتشدد في الغناء والمبالغة في التعبير ، مع العجز في التمثيل ، إرادة هز الأعصاب (على طريقة يوسف وهبي ، فتأمل !) . ومن أصحاب هذا اللون من الموسيقى Puccini الذي لحن أكثر ما عرض علينا هذه السنة ، وبئست السنة !

وليست الأوبرة الغربية السامية على هذه الصفة ، تلك الأوبرة التي نزهها Wagner وتسلمها Debussy وجماعة الروس وغيرهم من المحدثين المهرة .

إنه يحسن بالمسؤولين — وكأني بهم مسئولون بغير حق — أن يقلعوا عن أسلوب في الاختيار مريض يجعلهم ينشطون للألحان المتداولة من سنين ، المنبثة في الأسواق ، المسترخية في الآذان ، الهالكة في الصدور . وإذا كان قوم كتب عليهم أن يظلوا يطربون للأغاني الافرنجية المبتذلة ، — شأن قوم أصيبوا بالاقبال على تلاحيننا العربية الملققة — فليقدم المسئولون إليهم طرقًا من الأوبرات الضعيفة مثل *Madame Butterfly* و *La Traviata* (ولا حول ولا قوة إلا بالله !) ، على شرط أن يجلبوا لأهل الذوق السليم والبصر المديد أوبرات من اللون الرفيع بعضها من مختم القرن الماضي وبعضها من هذا القرن . وإذا شق عليهم تعرف هذه وتلمسها فهل يسألون ويستبصرون ؟

على أن إدارة الأوبرة الملكية عوضت إخفاقها في الموسم الموسيقى من نجاحها في الموسم التمثيلي . ولا أدري أعتمدت على نفسها في اختيار الفرقة أم استشارت في شأنها ، فلا شك أنها وفقت لفرقة فرنسية تعمل للفن الخالص أكثر ما تعمل . والحق أن ليس في الممثلين غير الرأس وهو Jean Marchat إذ يجيد الأداء

الاجادة كلها . وأما إخوانه فيفلحون هنا وهنا ويحيدون إجادته وربما بذوها في مواطن معينة : من ذلك أداء Lucien Pascal في المسرحية « البشارة إلى مريم » و Jean Ozenne في مسرحية « موعد في سنليس » . وأما المثلاث فهن في الجملة خير من المثلين ، وأشهد أن Michèle Alfa في المرتبة الأولى في جهة تمثيل المأساة وأن Gisèle Casadesus لا تكاد تهبط عنها في جهة تمثيل الملهاة . ولسائر المثلاث مواقف بارعة ، أذكر منها موقف E. Hardy في مسرحية « سألحيا حياة حب عظيم » وموقف E. Hardy في مسرحية « موعد في سنليس » .

ولست غامراً بالفرقة ، ولكني واضعها في مكانها . وبعيد عن ذهني أني أنزلها عن المرتبة العليا ؛ لأن أفرادها — بما عدا ممثلة واحدة — ليسوا من مسرح « الكوميدي فرانسيز » . ففي أوهم جماعة من الناس أن فن المسرح إنما أوله وآخره بين جدران الكوميدي فرانسيز ، وأن سره بين أيدي رجالها ونساءها . وهنا أذكر أننا كنا نلهو في باريس بالغرباء وأهل الريف إذ كانوا يستبقون إلى مقاعد الكوميدي فرانسيز مهملين المسارح التي فيها يتحرك الفن إلى جهة الكمال تأليفاً وإخراجاً وتمثيلاً ، وتهب الأنسام المنعشة سواء جاءت من قلب باريس أو من أطراف أوربة ، من روسية أو الرويج أو إنجلترا أو إيطاليا . وكانت هذه المسارح أربعة بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٨ ، وأصحابها هم Jouvet و Pitoëff و Baty و Dullin . وعلى أيدي هؤلاء لا على أيدي الكوميدي فرانسيز المسترخيتين المتشققتين أدركنا كنه المسرح وبعده ولطفه وقوته . وبذلك الأيدي الحاذقة استغاثت الكوميدي فرانسيز لتصلح شأنها وتجدد طريقتها قبيل الحرب .

والفرقة التي جاءتنا هذه السنة هي بين التشدد والترخص في اختيار المسرحيات ، ولكنها تميل إلى الحديث في الإخراج على ألوانه . أما ترخصها فبتمثيلها هذه المسرحيات التي يفرح بها أهل العبث والتسلي من النظارة : de Flers et Cavaillet, *L'âne de Buridan*; Feydeau, *Feu la Mère de Madame*; M. Durand, *Bonne chance Denis*.

وأما بعض تشدها فبإقبالها على المسرحيات الاتباعية (الكلاسيك) مثل

« *Tartuffe* و *Le Misanthrope* ، أترجمهما بالمرائي ثم النفور ، وكلاهما لموليير ، ثم *Les caprices de Marianne* أو بدوات مريان وهي لألفريد دي موسيه ، ثم « *Sâchia* حياة حب عظيم » *Je vivrai un grand amour* لـ *Stève Passeur* و « موعِد في سنليس » لـ *Jean Anouilh* ، وهذان المؤلفان الفرنسيان المعاصران من طبقة حسنة ، ولكن لما مسرحيات خير من هاتين قد شهدتهما في باريس من سنوات ، وكأن المؤلفين آخذان الآن في ترديد أفكارهما واستثارت طرائقهما . ثم خطر لهذه الفرقة أن تغالي في التشديد —وها هنا موضع فخرها— فأدت مسرحيتين هما —عندي— في قمة فن المساة : الأولى « حرب طروادة لن تقع » *La guerre de Troie n'aura pas lieu* لجيرودو *Giraudoux* صاحب الخفائف واللطائف ، وقد تكلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي في عدد مضى على هذه المسرحية وعرضها أتم عرض . والثانية : « البشارة إلى مريم » *L'annonce faite à Marie* ^(١) لبول كوديل *P. Claudel* وهو أكبر شاعر فرنسي لهذا العهد . وإني محدثك في شأنها بعض الشيء :

قد يرى غيري أن مسرحية « النفور » لموليير ألطف وأجذب من « البشارة إلى مريم » وأن في هذه ثقلا وغرابة . والحق أن ما بينها هو الذي بين الملهاة والمساءة ، ثم ما بين المستمتع به من الخارج والمحسوس به من الباطن ، وبين اللفظ الواضح الجليل واللفظ الغامض الخافق ، وبين المعنى القريب المعلق بالشفة والمعنى المستبعد الجائل في الضمير ، وبكلمة واحدة : ما بين النثر والشعر . أجل بين النثر والشعر وإن كانت « النفور » منظومة و « البشارة » منثورة ، وليس الشعر في التقاطيع والقوافي .

هذا وللفرنسيين أن يعجبوا بمسرحية « النفور » ما شاء لهم أن يعجبوا لظرف فيها وللون من الغرام المتدلل أحبوه ولطريقة من النظم الحكم غلبت على أذواقهم ولبراعة في مط الحوار . وقد جعلوا هذه الأمور كلها مقاييس وأداروا عليها فن المسرح الاتباعي . للفرنسيين أن يروا كل هذا ولهم أيضاً أن يعدوا

(١) ترجمها بعضهم ارتجالاً « البشرى المبلغة إلى ماري » .

موليير آية أدبهم المسرحي بعد راسين أو إلى جنبه . ولكن كل هذا لا يشفع لموليير إذا قيس بكلوديل . فأدب موليير من عهد مضي وأسلوب جمد ومن إحساس مغاير وتصور مفارق ، وفيه أشخاص يأسره التصنع ويمددهم عن لفظهم المفرغ في قالب من النظم المبهرج . وهنا أذكر فصولاً للكاتب الفرنسي البارع الفطن ستندال Stendhal كشف فيها ، عند فاتحة القرن الماضي ، عن اللغو والتكلف والمباعدة التي في مسرحيات الطريقة الاتباعية ، وهذه الفصول منشورة في كتاب عنوانه *Racine et Shakespeare* .

هذا ، وإني لا أكتفك أن عيني غلبتني في الفصل الثاني من « النفور » ، وقد أغنى الضمير قبل أن تغني العين ، فسألت نفسي كيف نشطت للمسرحية طول الفصل الأول : هل إنشطتي الحاسن التي تعجب الفرنسيين ، هل جادبتني وأنا أدري أنها قريبة الأثر ؟ فكرت ففطنت أن تزويق المسرح كان غاية في المهارة وأنه كان طريفاً جداً مستمداً من التصوير الحديث في فرنسا ، هذا التصوير الذي عرضت له في عدد مضي من هذه المجلة . ففي ذلك التزويق عرفت أسلوب المصورين التعبيريين *Expressionnistes* وبه يوحى إليك الفضاء بخطوط مستوية متراكبة ، هذه مضيئة وهذه مظلمة كأن بعضها يدافع بعضاً . وفطنت أيضاً أني نشطت للمسرحية بفضل الثياب الفاخرة من جهة ، المستظرفة من جهة .

أما « البشارة إلى مريم » فمن مادة أخرى . وهي لم تأخذني بمناظرها وملابسها وإن كانت محكمة . إنها لم تأخذني ، إنها أسرّتي ، مع أني شهدت قبل ذلك في باريس . والحق أن هذه المسرحية تدخل في نطاق الأدب الذي يصفه عامة النقاد بالصعوبة والإغلاق أحياناً . وهو الأدب المتملى قوة وطرافة وبعداً ؛ لأن مصدره نطاوي النفس ، ومشعله حرارات الروح ، وأداته لطافة النثر النابض شعوراً الوائب خيالا ، وغايته تمجيد القوى الروحانية وتعزيز القيم الانسانية . « البشارة إلى مريم » تتلخص في تضحية الجسم في سبيل الروح ، ووقف هذه الروح لعبادة الله وخدمة الدين . وإن كانت المسرحية مسيحية فهي صالحة لكل بيئة تغلب المعنى على الحس وتتطلع إلى الأسمى والأبقى .

وليس يفوتني أن المسرحية لم تنجح في باريس إلا من سنوات معدودة نجاحاً محدوداً ، وأنها لم تنجح في القاهرة نجاحاً صادقا ، إذ أقبل أكثر الناس عليها

من باب الاستطلاع أو تكلف التألق ؛ وقد سمعت جارتين لي تضحكان وجاراً يتأفف .

هذه المسرحية تدور على سر قبلة تضعها فتاة مؤمنة نقية على شفة بناء أجزم حتى تشتف من دمه المرض القتال ، فيستطيع أن يتم إقامة كنيسة تنشأ لحمد الله على مننه . ونحيا الفتاة منبوذة ، مثلومة العرض ظلاماً ، وفي ضميرها راحة القديسين ومن يديها تخرج معجزات القربين : انحل جسمها واشتعلت روحها ، ظلمت وحشتها وانتصر إيمانها . فهي أمة الله ، منه وله ثم إليه .

سيقول أهل العتب والتسلي أولئك الذين لا يستشفون دخلة المسرح وقد عميت بصائرهم عن الجد والبعد والشعر والسمو : إن هذا لا شأن له بالمسرح . ولست أناقشهم ، لأن رأيهم يمدد الجهل بأصول الفن ، وذوقهم تقوته الرهافة .

وفي الجملة إن إدارة الأوبرة الملكية أتاحت لنا هذه السنة بعض المتعة في ناحية المسرح ، ويسرت لنا الصبر على السخائف والتوافه التي لا تنفك الفرقة القومية المصرية « الرسمية » ترمى بها الجمهور المسكين المظلوم .

بشر فارسي